

دمشق

في أواسط القرن الثامن عشر كما يؤرخ لها البديري الحلاق

نصر الدين البحرة

كتاب « حوادث دمشق اليومية » هو من أشهر المؤلفات التي تحدثت عن هذه المدينة في فترة معينة ، فهو يتناول واقع هذه العاصمة في أواسط القرن الثامن عشر ، ويعرض لتاريخ هذه السنوات الاحدى والعشرين ، اجتماعياً واقتصادياً وثقافياً ، في مزيد من التفصيل والوضوح ، حتى يمكن القول انه من أهم المراجع للاقتراب من صورة دمشق في ذلك الزمن ، ان لم نقل انه أهمها على الاطلاق .

لعل

□ مقدمة محقق الكتاب :

والواقع أن هذا الكتاب قد مرّ بثلاث مراحل قبل أن يصل الى أيدينا في صورته الراهنة . فحوالي منتصف القرن الثامن عشر بدأ بكتابتها الشيخ أحمد البديري الحلاق . وفي أواخر القرن التاسع عشر، تناوله الشيخ محمد سعيد القاسمي بالتعديل والتهديب . وعام ١٩٥٩ ظهرت طبعته الأولى مع مقدمة ضافية وافية بقلم الدكتور أحمد عزت عبدالكريم أستاذ التاريخ الحديث بجامعة عين شمس في القطر المصري الشقيق . وكان هذا المؤرخ قد أقام زماناً في دمشق ، قدره ثلاث سنوات بين عامي ١٩٤٦ - ١٩٤٩ كان هذا الكتاب ثمرتها الياقنة الشهية .

لم يكن مؤلف « حوادث دمشق اليومية » الشيخ أحمد البديري الحلاق ، سوى حلاق كما يدل على ذلك اسمه . الا أنه كان يمارس مهنته في زمن انعدمت فيه وسائل رواية الأخبار من صحف أو اذاعة . وكان الزبائن الذين يقبلون عليه كما يقول الدكتور عبدالكريم يسمعون كثيراً ويروون كثيراً . وهكذا فانهم كانوا كل يوم يقدمون له المواد التي يسجلها في دفتره ، بعد أن يفلق دكانه منهياً عمله . ولقد كتبها بأسلوبه الذي تشيع فيه العامية .

وبقي هذا الكتاب نسياً منسياً أكثر من مئة سنة، حتى عاد الى الظهور في القرن التالي:
التاسع عشر .

ان محقق الكتاب الدكتور أحمد عبد الكريم يقدم روايتين اثنتين حول كيفية وصوله الى الشيخ القاسمي ، وقد سمعهما من الباحث السوري في الآثار محافظ المتحف الوطني بدمشق ، الراحل أبي الفرج العش .

قيل أولاً ان الشيخ محمد سعيد القاسمي أراد يوماً أن يبتاع شيئاً من عطار فوضع له العطار ما باعه في ورقة مكتوبة، وحين عاد الى البيت ففتح الورقة وقرأ ما فيها ، أدرك أنها جزء من مخطوط تاريخي ، فعاد فوراً الى العطار وحصل على جميع الأوراق الباقية من الكراسية . . ولم تكن هذه سوى مخطوط البديري « حوادث دمشق اليومية » .

أما الرواية الثانية فتقول انه استعار هذا المخطوط من الشيخ طاهر الجزائري . وكان هذا قد اشتراه في مزاييدة عقدت لبيع مكتبة الشيخ محمد المنير أحد علماء دمشق في القرن التاسع عشر بعد وفاته .

وبعد أن اطلع القاسمي على المخطوط استأذن صاحبه أن ينسخه فأذن له . . فاذا هو يفتنم الفرصة ، فيعتمد الى تنقيح الكتاب . . وتحسين أسلوبه بعد أن كان مكتوباً باللهجة العامية الدمشقية .

□اليوميات خلال ٢١ سنة :

يحفل الكتاب بالأخبار التي جمعها أحمد البديري الحلاق في الفترة التي كان يسجل فيها حوادثه وقد استغرقت واحداً وعشرين عاماً بين سنتي « ١٧٤١ - ١٧٦٢ م » ، و « ١١٥٤ - ١١٧٥ هـ » وكاد المؤلف أن يحصر اهتمامه بتدوين ما يجري في دمشق وحدها ، من تولي الباشوات وكبار أصحاب المناصب ، وعزلهم ومصادرة أموالهم كالمسلم ، أي مندوب الباشا لإدارة الولاية أثناء غيابه ، والدفتدار أي المشرف على الحسابات المالية والقاضي والمفتي وأغوات العسكر ، وهذه رتبة عسكرية . أضاف الى ذلك أنباء الحج ، وطلوع مكب الحج من دمشق وعودته اليها ، وما جرى له في الطريق ، وفتن الجنود ، ونهوض الأسعار واضطراب الأمن وفساد الأخلاق وانتشار الأمراض وغزو الجراد . . وحدث ظواهر طبيعية من ريع شديد وخسوف وكسوف . . وفيضان وزلازل .

ويلاحظ الدكتور عبد الكريم أن أنباء الحج حازت على جانب كبير من اهتمام البديري ، فقد كان يتتبعها كل سنة ويبدأ تسجيلها ، بعد أن تتحرك قافلة الحج في اثر المحمل . . ويواصل هذا الاهتمام ، بكل ما يمكن أن ينطوي عليه من تفاصيل وأخبار . . حتى تعود القافلة الى دمشق .

غير أن هؤلاء الحجاج ليسوا أناساً من دمشق وحدها ، بل انهم يأتون من جميع أنحاء سورية ، وليسوا هم وحدهم فحسب ، ذاك أن دمشق في موسم الحج تغدو مركزاً كبيراً يتجمع فيه الحجاج من بلاد العجم وإيران وما وراءها وتركيا وآسيا الوسطى . وربما كان هذا هو ما أضفى على دمشق هذا الطابع من المقدسية حتى دعوها « شام شريف » .

□ جبر خاطر لعموم الناس :

يقول الدكتور عبدالكريم :

« اعتاد أكثر الحجاج الغرباء أن يحملوا معهم كثيراً من منتجات بلادهم لبيعها في دمشق ، كي يستعينوا بثمانها على أداء نفقات الحج • وكثيرون منهم يبادلون بمنتجات بلادهم منتجات سورية • وهكذا كانت خانات دمشق وأسواقها تمتلئ بخليط عجيب من الناس والأصناف والأبل والخيل ودواب الحمل فتروج فيها حركة التجارة •

وكان أهل دمشق ينتظرون وصول قافلة العجم باهتمام كبير خصوصاً إذا كانت كبيرة العدد ، فانهم يحضرون معهم « ربيات » ذهباً ولؤلؤاً كبيراً وصغيراً وأحجاراً ومعادن وشالاً ، فيحدث على حد تعبير البديري « جبر خاطر لعموم الناس في المبيع والشراء » •

وكان وزير دمشق ، أو الباشا ، مسؤولاً عن ضبط الأمن فيها خلال وجود هذا العدد الكبير من الناس فيها • وكان يراقب الأسعار لئلا يرفعها التجار فيؤذوا أهل المدينة وضيوفها •

وكان عليه أيضاً أن يعد قافلة الحج والمحمل الشريف ، وأن يؤلف القوة العسكرية التي ستصحبهما ، وأن يدافع عنهما ضد أي اعتداء يحتمل أن يشنه العدو في الطريق •

وبين مهمات وزير دمشق في رعاية الحجاج أعداد الآبار في الطريق للشرب ، وتأليف عشائر البدو بالهدايا والأموال • وربما وجد في الطريق متاعب وصعوبات لم يحسب لها حساباً • وكان هذا كله هو الذي جعل مسؤولية وزير الشام بوصفه أميراً للحج الشامي ، خطيرة إلى درجة إقالته من منصبه في حال فشله كما يوضح البديري الحلاق •• في كتابه هذا •

□ أمير الحج •• شخصية أخرى :

في المقدمة الإضافية التي وضعها لهذا الكتاب ، الدكتور أحمد عزت عبدالكريم ، يقدم حديثاً وافياً عن هذه المناسبة في دمشق ، أي الحج ، وقد كانت لها طقوس كثيرة ، وأحييت بمزيد من الاجلال والحفاوة ، بل أنه يذهب إلى أن شخصية أخرى ظهرت في القرن السابع عشر وهو القرن الذي سبق الزمان الذي كتب فيه البديري يومياته ، كان صاحبها يدعى : أمير الركب • لقد أحدثت هذه الوظيفة إلى جانب أمير الحج ، ولا تعلم بالدقة اختصاصات صاحبها ، وكان أحد الباشوات العثمانيين أو من رؤساء الجنود ، إلا أنه كان على كل حال أمير ركب محمل الحج وقائد الجند الذين يصحبون المحمل لحراسته ، وفي الآن ذاته كان باشا الشام أميراً على القافلة كلها ، بمن فيها من مدنيين وعسكريين •

ومهما يكن من أمر ، فإن هذا المنصب اختفى في القرن الثامن عشر ، وأصبح باشا الشام أمير الحج وأمير الركب معاً •

وكما يقول الدكتور عبدالكريم فإن الاستعدادات لخروج الحج تبدأ قبل حلول موسمه بثلاثة أشهر وحينذاك ، يقوم الباشا بجولة تفتيشية كانت تسمى « الدورة » ويتولى

خلالها مع جنده تفتيش عدد من الجهات ، لجمع أموال من سكان المناطق الجنوبية في فلسطين والأردن يستعان بها في اعداد قافلة الحج والمحمل ، ولاظهار سطوة الدولة في هذه المناطق التي ستمر فيها قافلة الحجاج .

في الأسبوع الأخير من شهر شعبان يبدأ توارد الحجاج البعيدين الى دمشق ، حتى اذا كان شهر رمضان امتلأت دمشق بهم . وفي منتصف شوال تبلغ الترتيبات النهائية لقافلة الحج ذروتها ، فيخرج أمير الحج من سراي الحكومة قرب القلعة على رأس موكب المحمل ويتخذ طريق الميدان ، متجهاً الى قرية المزيريب في حوران . وبعد أقل من أسبوع تتوالى قوافل الحجاج في السفر : قافلة الحج الشامي، فالحلبى، فالعجمي . . . ويتجمعون في المزيريب، حيث يقضون بضعة أيام يستعدون خلالها للرحلة الكبرى الى الحجاز ، فيبيعون ويشتررون ، وينظم الباشا جنوده ويستطلع الطريق .

□ قافلة الجردة : ٢٢ يوماً :

وفيما يتجه الحجاج الى بيت الله الحرام، فان الاستعدادات تبدأ لاستقبالهم بما يسمى: الجردة . وتنتدب الدولة أحد وزرائها أو ولايتها لاعداد قافلة الجردة ، وتتألف من مؤن غذائية وشعر وعليق للدواب، وحبال وملابس . . . تعد لاسعاف الحجاج في طريق عودتهم الى الشام خشية أن يكون ما عندهم قد نفذ .

وتمضي قافلة الجردة مع رئيسها : سردار الجردة ، اثنين وعشرين يوماً في الطريق ، ثم تصل الى مكان شمال المدينة المنورة يسمى: هدية . وهناك يكون اللقاء بين قافلة الجردة وبين الحجاج . . . وبعد أيام يبدؤون جميعاً طريق العودة . واذ يقتربون من دمشق ، فان أمير الحج يرسل أحد رجاله يدعى الجوخدار أو الجوقدار ليشير بوصول الحجاج سالمين أو ليطلب النجدة ان كانت القافلة قد تعرضت للعدوان .

يقول الدكتور عبدالكريم : ان رحلة الحج لم تكن نزهة ، فقد كان الحجاج يقضون في الرحلة كلها زهاء أربعة أشهر من شوال الى صفر ، وكانت الرحلة حقاً قطعة من العذاب ، ومدونات تلك الأيام تفيض بما كان يلقيه الحجاج من أخطار الطريق ، من ظواهر طبيعية لا يستطيعون لها دفعا كالحرا للافح أو البرد القارس أو السيل الجارف ، أو من عدوان بعض الناس فيموت منهم الألوف . . . ويعود الباقيون في أشأم حال . بينما يظل الناس في دمشق يتنسمون أخبارهم ، حتى ان بعضهم يخرج الى ظاهر المدينة عند باب الله ، في الميدان ، يستطلعون أنباءهم .

□ كوارث ومشقات في الطريق :

وقد تحدث البديري عما لقيه الحجاج من أخطار في بعض السنوات ، فسنة ١١٥٦ هـ وكانت تقابل عام ١٧٤٣ - ١٧٤٤ م : « جاء خبر عن الحج الشريف بأنه غرق في « الحسا » وذهب على ما قيل مقدار نصف الحجاج من خيل وجمال وبغال ، ونساء ورجال ، وأموال وأحمال .

ومضى الحجاج في طريقهم الى دمشق ، فاذا سيل آخر يفاجئهم في البلقاء حتى كاد أن يهلك بقية الحجاج ، وبادر الباشا ، فأنفذر سولا الى دمشق يطلب النجدة من أهلها فشق شوارعها وهو ينادي :

« يا أمة محمد ! من كان يحب الله ورسوله ، وتمكن من الخروج فليخرج ومعه ما يقدر عليه من مأكلا ومشرب وملبس » .

فخرجت الخلق مثل الجراد ، كما يقول البديري .

وقد يضطر أمير الحج أن يتنكب الطريق الرئيسي حيث تقوم آبار الماء وتتوفر المياه ، الى طريق آخر ، ليتجنب عدواناً يديره بعض اللصوص . وقد حدث في إحدى المرات أن الحجاج لم يجدوا ماء في الطريق الآخر ، فأصابهم الظمأ حتى توفي منهم في يوم واحد ألف ومئة حاج . ومثل هذا كثير على حد تعبير البديري .

ويختم محقق الكتاب هذا الحديث عن الحج بذكر التغييرات التي طرأت على إجراءات الحج في منتصف القرن التاسع عشر ، ومنها التحول الى استخدام البحر الأحمر ، ابتداءً من عام ١٨٥٨ ، حين حلت السفن البخارية محل السفن الشراعية في نقل الحجاج بين السويس وجدة ، ثم كان انشاء الخط الحديدي بين الاسكندرية والقاهرة والسويس ، وشقت بعدئذ قناة السويس ، فكان الحجاج الآتون من تركيا يفضلون الابحار الى بيروت أو الاسكندرية . واستخدم الحجاج الإيرانيون طريق خليج البصرة الى جدة . ولكن أعظم انقلاب في الحج ، كان انشاء سكة حديد الحجاز عام ١٩٠٨ ، فبطل طريق القوافل تماماً .

□ دمشق أواسط القرن الثامن عشر :

انطوت يوميات البديري الحلاق في كتابه هذا ، على وقائع كثيرة غريبة ، يمكن أن نرى أنها من حيث دلالتها الأخيرة ، خير شاهد على الحالة الاجتماعية - الثقافية التي عاشها الناس في دمشق في أواسط القرن الثامن عشر الماضي . فان هناك ربطاً غير عادي ، بين بعض الظواهر الاجتماعية كفساد الأخلاق مثلاً على حد تعبير واضع الكتاب ، وبين بعض الكوارث الطبيعية كالسيل والزلازل والجراد . وهو يرى أن هذه جاءت نتيجة لتلك وعقاباً عليها . وهناك أيضاً إيمان بالخوارق والغيبيات . ففي أحداث عام ١١٥٩ هـ الموافق للسنتين ١٧٤٦ - ١٧٤٧ وصل الجراد الى الشام ، فنزل على بساتينها « فأكل حتى لم يبق ولم يذر » فماذا كانت النتيجة؟ يوضح الكاتب أن الباشا والي الشام أرسل رجلين من أهل الخبرة كي يأتياه بماء السممر . وفي السنة التالية ١١٦٠ هـ عاد الجراد الى الظهور في الشام وأراضيها .

يقول البديري : « فلما جاء فصل الربيع صار يظهر شيئاً فشيئاً ، الى أن ظهر مظهراً شنيعاً وبدأ يزحف مثل التمل والذر ، فبدأ يأكل الزرع ويتلف النبات ، فوقعت الناس في كرب عظيم ، فنبته حضرة أسعد باشا حفظه الله على الفلاحين عموماً بأن تجمعه وتأتي به . وقد فرض على الأراضي الخمس - أي التي يحتاج ارواؤها الى جهد كاستخدام الروافع أو السدود ويجبى منها خمسة بالمئة من غلتها - كل أرض قنطارين . وكذلك القرى

والضياع ، كل ضيعة فرض عليها شيئاً معلوماً يجمعونه . فجيء به - أي الجراد - أحمالاً وأمر به أن يدفن » وظل والي الشام أياماً كثيرة يتابع طريقته هذه في مكافحة الجراد ، مع فرض الجزاء على المخالفين ، حتى أنهم في ثلاثة أيام وضعوا في الصالحية ألفاً وسبعمئة قنطار من الجراد ، عدا ما وضع في المغاور والآبار في غير الصالحية .

□ المشايخ وأهل الطرق .. والسمرمر :

ولكن ماذا عن ماء السمرمر ؟

إن محقق الكتاب الدكتور عبد الكريم يتحدث في إحدى الحواشي عن نوع من الطير يدعى بهذا الاسم وكان الناس يعتقدون أن هذا الطير يفتك بالجراد ، فكانوا يحرسون على الاتيان به إذا نزل الجراد بأرضهم ، ولكنه في اعتقادهم لا يأتي إلا تابعا نوعاً خاصاً من الماء يجلب خاصاً من عين بين أصفهان وشيراز . فإذا نزل الجراد بأرض ، جلب إليها من تلك العين ماء بحيث أن حامل الماء لا يضعه على الأرض ولا يلتفت وراءه فيبقى طير السمرمر على رأس حامل ذلك الماء كالسحابة السوداء إلى أن يصل إلى الأرض التي فيها الجراد فتقع الطيور عليه وتقتله . وقيل : من شرطه أن يكون حامل الماء من أهل الصلاح .

ويرى الدكتور عبد الكريم أن اعتقاد الناس بالسمرمر وماء السمرمر ظل قائماً حتى زمن متأخر ، وهو ينقل عن الأمير حيدر الشهابي أن أسراباً من الجراد أغارت على بلاد الشام سنة ١٨١٦ وأهلكت الزرع ، حتى أرسل الله له السمرمر ، ففقس في أرض وادي التيم وغير أماكن ، ثم لحق الجراد بعد طيرانه فاختفى وأراح الله العالم منه .

ويتحدث البديري عن يوم وصل فيه ماء السمرمر ، وهو يوم الاثنين رابع عشر رجب عام ١١٥٩ فيقول : جاؤوا بماء السمرمر وطلعت ملاقاته المشايخ وأهل الطرق بالأعلام والمزامير وطبول الباز ، ودخلوا بموكب عظيم بكت فيه خلق كثير ، وعلقوه بمنارة الشيخ الأكبر في الصالحية ، وفي منارة تكية المرجة السلمانية ، وفي منارات الجامع الأموي ، وأبقوا في السرايا قُرَباً من ماء السمرمر .

□ كثر الجراد وأضر بالعباد :

ويبدو أن جمع الجراد ، ومكافحته بالسمرمر ... مراراً دون نتيجة تذكر ، ذاك أن هذا المؤرخ الشعبي يقول « في تلك الأيام كثر الجراد وأضر بالعباد وكان الناس لم يجمعوا منه شيئاً ، وهذا كله مع ازدياد الفجور والفسق والغرور والشرور ، فخرج الشيخ إبراهيم الجبلاوي ومعه التغالبية بالأعلام والطبول وقصدوا زيارة السيدة زينب واستغاثوا عندها بكشف البلاء عن العباد . ورجعوا آخر النهار ، ثم داروا حول مدينة دمشق ، ومروا أمام باب السرايا ، وعملوا « دوسة » وصار حال عظيم وبكاء شديد ، وشعلت الرجال القناديل ، وهم يدعون بهلاك الجراد ورفع البلاء . وبعد يومين جاءت أهل الميدان بطبول وأعلام وحال وصريخ وقصدوا جامع باب المصلى بالدعاء برفع الجراد وهلاكه » .

.. ولكن ما هي « الدوسة » التي يقول البديري أنهم الجؤوا إليها فيما فعلوا لدفع آذى الجراد ؟

□ الدوسة ٠٠ والطريقة السعدية :

الدوسة ، كما يعرفها الدكتور عبد الكريم هي احتفال كان يقيمه رجال الطريقة السعدية في مولد النبي (ﷺ) وبعض الاولياء ، فكان عدد من رجال هذه الطريقة ينبطحون ارضاً على وجوههم ، ثم يمر شيخ الطريقة فوقهم ممتطياً جواده يقوده اثنان من اتباعه ، فيدوسهم واحداً بعد آخر ولا يصيب احداً بضرب . وهذه كما ترى دائرة المعارف الاسلامية كرامة من كرامات الطريقة وشيخها ٠٠٠ وقد كانت تقام أيضاً كلما اشتد الكرب بالناس ، مثلما حدث تلك السنة اذ هجم الجراد ٠٠٠ وتردت الاحوال الاجتماعية والاقتصادية في دمشق .

في مثل هذا المناخ الفكري المتخلف والحالة الاجتماعية المتردية ٠٠ تصاب المحاكمة المنطقية بالعطالة ويغدو الذهن جاهزاً لتقبل الشائعات وتصديقها ٠٠٠ دون اعمال الفكر بالنظر فيها وغربلتها . وهكذا كما يذكر البديري شاع خبر في دمشق أن امرأة تحتال على الرجال والأولاد ، فخاف الناس وكثر الفزع ، ولم تمض أيام كثيرة حتى قبض العامة عليها ، وخلفها الأولاد والرجال يضربونها ضرباً موجعاً . وعند مثلها أمام القاضي قالت :

« والله يا سيدي أنا امرأة فقيرة الحال ولي أولاد وعيال ، وهذا القول عني زور وبهتان » . فأمر القاضي بتفتيشها وتفتيش بيتها ، فلم يجدوا معها شيئاً يذكر ، ولم يعيشوا في منزلها على غير متاع عتيق وقطعة من الحصر . وشهد الجيران أنها امرأة فقيرة ٠٠٠ فأطلق سراحها ومضت .

ويقدم هذا الكاتب العفوي رجلاً من محلة القبيبات - كانت في آخر حي الميدان - فيصفه بأنه مبارك، من كراماته أنه رأى يوماً رجلاً يبيع علب لبن ، فطلب علبه منها ، ولما أعطيها أياها رفضها ، وأشار الى علبه معينة ، فأخذها ، ثم لم يلبث أن أفرغها على الأرض فخرجت أفعى ، فتركها ومضى .

□ حين أقام الدمشقيون في الخيام :

بين الأحداث الهامة التي يؤرخ لها البديري الحلاق في هذا الكتاب ، الزلزال الذي وقع عام ١٧٥٩ للميلاد وأشار اليه كمال الدين الغزي في تذكرته الكمالية ، وسقطت اثره أبنية كثيرة وقتل عدد كبير من الناس ، وكان بين ما تهدم وسقط ، رؤوس عدد كبير من مآذن المساجد في دمشق وقبابها ، وبينها قبة النسر في الجامع الأموي وثلاث قباب من خان أسعد باشا في البزورية . ويوضح البديري أن هذا الزلزال قد تجدد ، مثلما كان الغزي قد ذكر ، واشتدت الرياح وتساقط المبانى حتى غادر دمشق أهلها ٠٠٠ وأقاموا شهوراً في الخيام خارجها ، حتى هدأت عوارض الزلزال تماماً .

ولقد وقعت زلزلة بدمشق ، كما يقول البديري عام ١٧٥٧ م ، وكانت أخرى سبقتها عام ١٧٥٤ م الا أنهما لم تكونا في شدة زلزال ١٧٥٩ ولم تستمرا زمناً كالزمن الذي استغرقه هذا الزلزال الفاجع طوال عشرين يوماً .

وهو يحدثنا عن كسوف الشمس الذي كان وشاهده أهل دمشق في التاسع والعشرين من رجب عام ١١٦١ للهجرة وسنة ١٧٤٨ للميلاد . يقول البديري :

« كسفت الشمس حتى أظلمت الشام ورأت آتناس النجوم كما تراها في الليل ، ومكثت مكسوفة إحدى وعشرين درجة . وصلت الناس صلاة الكسوف في الجامع الاموي .

... وبعد خمسة عشر يوماً ، ليلة الجمعة رابع عشر من شعبان ، من هذه السنة خسف القمر خسوفاً بليغاً ، حتى لم يظهر منه شيء ، وكان ذلك في الساعة السابعة من الليل . كما هو معروف حسب التوقيت القديم فان الساعة السابعة تجيء وسط الليل .

□ قصر العظم وقصة النهب المنظم :

وفي الحقيقة فان بين الأحداث الهامة التي أرّخها الشيخ البديري بناء قصر العظم . ولقد روى قصة اقامة هذا المبنى بالتفصيل بين يوم وآخر ، من الايام التي سجلها في دفتره . وانما يحتل هذا القصر أهمية خاصة ، اضافة الى قيمته التاريخية ، ذاك أنه مثال لا يقلد عن البيوت الشامية من حيث اجتماع كل الخصائص من فن البناء والهندسة والتزيين والمرافق . وقبل أكثر من مئة وعشر سنوات ، حين وضع نعمان قساطلي كتابه « الروضة الغناء » ونشره في بيروت عام ١٨٧٩ أورد فيه أن قصر العظم يحتوي على أجمل القاعات الشرقية وفيه برك واسعة قلما يوجد نظيرها ، ويقصد هذه الدار أهل السياحة للفرجة على حد تعبير القساطلي . ويستطرد قائلاً : ان فيها ثلاثمئة وستين حجرة بين سفلية وعلوية .

أما الأستاذ نجاة قصاب حسن ، فقد نشر مقالة في مجلة العمران الصادرة عن وزارة الاسكان في دمشق ، تكلم فيها عن قصر العظم بوصفه داراً دمشقية فقال :

« في هذه الدار لا توجد نوافذ على الطريق ، بل ان لها باباً كبيراً ، له بوابة صغيرة ، ومن بعدها تدخل ، فاذا أنت في جناح لاستقبال الضيوف اسمه : السلامك ، من السلام ، ومن بعده يبدأ قسم آخر هو « الحرمك » من الحرم والحريم أي : مكان النساء .

ثم ينتهي الأستاذ قصاب حسن الى أن بناء قصر العظم هو قصة النهب المنظم للشعب حتى تتكدس الثروات وتقوم معالم الجمال .

لقد بدأ أسعد باشا العظم بناء قصره عام ١١٦٣ هـ وانتهى منه عام ١١٧٤ هـ ، أي ان ذلك كان بين عامي ١٧٥٠ و ١٧٦١ للميلاد . وكان حاصل ما أنفقته أجوراً للعمال فحسب أكثر من أربعمئة مليون ليرة سورية تقريباً بعمله هذه الأيام !

□ أسعد باشا يأخذ دار معاوية :

يقول الشيخ البديري :

وفي تلك الأيام أخذ أسعد باشا دار معاوية ، والمقصود هو قصر الخضر ، وأخذ ما حولها من الخانات والدور والدكاكين وهدمها وشرع في عمارة داره : السرايا

المشهوره التي هي قبلي الجامع الأموي • وجدوا جتهد في عمارتها ليلا ونهارا • وقطع لها من جملة الخشب ألف خشبة ، وذلك ما عد الذي أرسله له أكابر البلد والأعيان من الأخشاب وغيرها •

ورسم على حمامات البلد أن لا يباع « قصر مل » لأحد ، بل يرسل العمارة السرايا القصر مل يعادل الاسمنت في أيامنا هذه - واشتغلت بها غالب معلمي البلد ونجارها وكذلك الدهانون ، بل قل ان يوجد معلم متقن أو نجار أو دهان الا والجميع مشغولون بها •

« وجلب لها البلاط من غالب بيوت المدينة • أينما وجد بلاطاً أو رخاماً وغير ذلك مثل عواميد وفساقي - جمع فسقية وهي بركة الماء - يرسل فيقلعها ويرسل القليل من ثمنها » •

□ حجار بصرى وأعمدتها الرخامية :

ويتابع البديري الحلاق في شيء من التفصيل وصف ما فعله أسعد باشا العظم حتى استكمل بناء قصره الشهير • فلم يقتصر أذى هذا الوالي ، على نهب الدور والأماكن العامة والمرافق في دمشق ، بل تجاوز ذلك ، الى حيث كان يصل الى سمعه أن في موقع كذا مبنى يصلح لأن ينهب منه شيء •

من ذلك مثلاً ، كما يقول البديري الحلاق أنه نقل من قرية بصرى شيئاً كثيراً من الأحجار وأعمدة الرخام • وأخذ من مدرسة الملك الناصر التي في الصالحية أعمدة غلاظاً ، جيء بها على عربات تجر بالبقر وهدم سوق الزنوطية الذي كان فوق حارة العمارة ، وكان كله أقبية معقودة فأمر بفكه ونقله الى هذا الدار - القصر • ونقل اليها أيضاً أعمدة من جامع يلبغا • « ومهما سمع ببلاط بديع أو أعمدة أو أحجار من أي محل ، كان يأتي بها شراء أو غير شراء » •

والكي يوضح البديري الى أي درجة كان أسعد باشا مستغرقاً في بناء قصره ، منصرفاً عن شؤون الدولة والناس ، يتحدث عن جريمة بشعة ، وقعت في سوق البزورية قرب موقع بناء القصر ، فلم يأبه بها هذا الوالي •

يقول الشيخ أحمد البديري :

« هذا ووزير الشام مشغول بعمارة داره ، ولم يلتفت الى رعاياه وأنصاره • ويقول : انتوني بحجارة المرمر والرخام والسرو » •

ويتابع هذا المؤرخ قائلاً :

وتفننوا في البناء والنقوش والتحلية بالذهب والفضة وجلب عواميد الرخام على العجلات والبقر • من بصرى •

وهذا يعني أن أسعد باشا ، أمر بأن تمت أيدي النهب الى ذينك الصرحين الأثرين العظيمين في بصرى : القلعة والمسرح •

□ توقف أعمال البناء في دمشق :

وخرَّب أيضاً سوق مسجد الأقباب واستجلب جميع ما فيه من أحجار وأخشاب .
« وكلما سمع بقطعة أو تحفة من رخام أو قيشاني أو غيرها ، يرسل فيأتي بها ، سواء رضي صاحبها أم أبي » .

ويذكر البديري كلمات توضح أن أسعدباشا سخر معظم المشتغلين في مسائل البناء والعمارة في قصره . ذاك أنه إذا أراد أحدان يعمّر أو يرمم فلا يجد معمارياً ولا نجّاراً ولا خشبياً ولا قصرمل . . . ولا أحجاراً . ولكن دل شيء موجود في القصر الجديد .

ويبدو أن أعمال البناء والعمارة ، كانت تحتاج إلى مياه كثيرة ، ولذلك فإن الوالي لم يابه بان تقطع مياه نهر القنوات التي كانت تروي قسماً كبيراً من مدينته دمشق كي تذهب إلى قصره .

□ قطع مياه الجوامع والحمامات :

يقول المؤرخ البديري :

وقد أخذ حضرة الباشا قدراً وافياً من ماء القنوات، فما وصل إلى السرايا حتى تقطعت السبل - أي المياه التي يشرب منها الناس في الطريق - وتقطعت مياه غالب الجوامع والحمامات ، وبقي ماء القنوات مدة مقطوعاً من غالب البيوت .

ولا يفوت البديري أن يلمّح في إشارة خاطفة إلى الضحايا الذين سقطوا في أثناء بناء القصر ، وقد ورد ذلك في حديثه عن « الدار » كما يجب أن يسمى هذا القصر ، بعد أن اكتمل البناء . . يقول البديري :

وبينما النجارون يرفعون السقائل لأجل رفع الطوان وقع ثمانية أنفار منهم فتهشموا ، ولم يقتل والله الحمد منهم أحد . فأمر حضرة الباشا أن يرسلوا إلى بيوتهم ، وأعطى كل واحد منهم نصف ذهبية .

أما الطوان الذي سقط هؤلاء النجارون، فيما كانوا يحاولون رفعه ، فإنه السقف المزخرف من الخشب أو القماش السميك ليغطي أعمدة السقف أو المناظر غير المستحبة منه .

وهكذا انتهى بناء قصر العظم في تلك السنة ١١٧٤ هـ - ١٧٦١ م ، فكان داراً كما يقول هذا المؤرخ الشعبي « ما صار نظيرها ، ولا عمل مثلها ، ولا وجد في الكون لها مثيل » .

★ ★ ★